

الزمان والفضاء في "شجيرة حناء وقمر"

الدكتور الجيلالي العرّابي

جامعة محمد الأول، وجدة- المغرب

تاريخ القبول: 2020-05-02

تاريخ الإرسال: 2020-04-16

الملخص:

تتناول هاته الدراسة مكويّ الزمان والفضاء في رواية "شجيرة حناء وقمر" للروائي أحمد التوفيق، وقد افتتحتها بتمهيد، عرفت فيه المكونين معا، وقسمتها إلى عنصرين، فعالجت في العنصر الأول الزمانَ في المتن المدرّوس (سير الزمان _ الزمان من منظور الشخصيات _ الزمان التاريخي)، وفي الثاني دلالات الفضاء. وختمتها بخلاصة تركيبية، عرضت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج...

الكلمات المفتاحية: علم السرد؛ الزمان؛ الفضاء؛ شجيرة حناء وقمر؛ أحمد التوفيق.

Abstract: This study deals with the component of the time and the component of the space in the novel "Henna shrub and Moon" by the novelist Ahmad Attawfiq. I opened it with a preface, in which I defined the two elements. And I divided it into two elements. In the first, I treated the time in the studied corpus, and in the second, I treated the connotations of space. And I ended with a summary, in which I presented the most important results...

Key words: The narratology; The time; The space; Henna shrub and Moon; Ahmad Attawfiq.

المقدمة

يتألف علم السرد من أربعة مكونات، هي الزمان، والفضاء/المكان، والشخصيات، والوظيفة السردية. يعد الزمان مكوناً هاماً، ويشكل طبيعة العمل، ويحددها، ويؤثر في بقية العناصر الأخرى، وينعكس عليها، ويعد بعداً أساساً لكل عملية سردية، ويشمل صفاتٍ متعددة الأشكال، ويساهم في تطوير بناء العمل السردية، ويؤلف إطاراً محتويًا ومتفاعلاً مع بقية العناصر البنائية الأخرى. يراه پول فاليري مصطلحاً دقيقاً شفافاً مقيداً مليئاً وغنياً بالدلالات والمعاني والإيحاءات، ويحسبه جيرار جينيت إشكاليةً جوهريةً محوريةً، يتجلى ذلك في أنه من الممكن جداً سرد قصة من غير ضبط مكان وقوعها، لكنه من شبه المستحيل عدم موقعتها في الزمان مقارنةً بالفعل السردية، ومن الضروري حكيها في الحاضر أو في الماضي أو في المستقبل⁽¹⁾، ويعد ديكرودودوروف أنه لا يصلح فقط لتحديد عامل الزمانية، بل إنه يمثل دالاً على علاقةٍ خاصةٍ بين المتكلم أو المتحدث وبين المتكلم عنه أو المتحدث عنه⁽²⁾. ويستحيل العثور على سردٍ خالٍ من عنصر الزمان، وهو نوعان اثنان، الزمان العام الذي تجري فيه أحداث المتن بصفة عامة، والزمان الخاص الذي

Gérard Genette:Figures III. Collection Poétique, Editions du Seuil, Paris_France 1972, page:228._1

sciences du langage. Collections _Oswald Ducrot _Tzvetan Todorov:Dictionnaire encyclopédique des2

Points, Editions du Seuil, 1ère publication, Paris_France 1972, page:398.

يقدم مدَّةً خاصَّةً معيَّنةً محدَّدةً، ويتخذ ثلاثة أنساق، هي النسق الصاعد السائر في اتجاه الأمام، والنسق المتقطع المتكسر المتشظي، والنسق الهابط العائد إلى الوراء.

تجمع أغلب المعاجم العربية والغربية على أن الزمانَ الوقتُ طويلاً أكان أم قصيراً، وأن جمعه الأزمان والأزمنة والأزمن، وأن أزمنة السنة فصولها الأربعة الربيع والصيف والخريف والشتاء. فقد جاء في "لسان العرب": "زمن: الزمن والزمان: اسم لقليل الوقت وكثيره، وفي المحكم: الزمن والزمان العصر، والجمع أزمن وأزمان وأزمنة. وزمن زامن: شديد. وأزمن الشيء: طال عليه الزمان، والاسم من ذلك الزمن والزُّمنة، عن ابن الأعرابي. وأزمن بالمكان: أقام به زماناً، وعامله مزامنة وزمانا من الزمن، الأخيرة عن اللحياني. وقال شمر: الدهر والزمان واحد، قال أبو الهيثم: أخطأ شمر، الزمان زمان الرُّطب والفاكهة وزمان الحر والبرد، قال: ويكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر، قال: والدهر لا ينقطع، قال أبو منصور: الدهر عند العرب يقع على وقت الزمان من الأزمنة وعلى مدة الدنيا كلها، (...).، والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل و ما أشبهه. (...). ولقيته ذات الزُّمن أي في ساعة لها أعداد، يريد بذلك تراخي الوقت، كما يقال: لقيته ذات العُوم أي بين الأعوام"⁽¹⁾. وورد في "معجم مقاييس اللغة": "زمن: الزاء والميم والنون أصلٌ واحدٌ يدلُّ على وقتٍ

1_محمد بن منظور:لسان العرب. الطبعة الأولى:1410هـ/1990م، الطبعة الثانية:1412هـ/1992م، الطبعة الثالثة:1414هـ/1994م، الناشر: دار صادر،

بيروت_لبنان، المجلد الثالث عشر، مادة:زمن، ص:199.

من الوقت. من ذلك الزمان، وهو الحين، قليله وكثيره. يقال زمان وزمن، والجمع أزمان وأزمنة. (1) ...

إن الزمان مدةٌ تتميز بتتابع الأيام والليالي والفصول ووقائع الحياة، ووقتٌ محددٌ تبعاً لما نقوم به فيه، وحقبةٌ معتبرةٌ إنطلاقاً من محدودية مدتها ومن الحيز الذي تشغله داخل مجرى الأحداث، وعصرٌ مضبوط، ولحظةٌ معينة، ومرحلةٌ حياةٍ شعبٍ أو فرد، ولحظةٌ إيجابيةٌ أو مُناسبةٌ مُناسبة، وفصلٌ ملائمٌ خاصٌ بشيءٍ أو بآخر (2)، ووسطٌ غير محدد تتقدم فيه الوجوداتُ في تغييرها والأحداثُ والظواهرُ إلى الأمام دونما أي إحجام (3). يراه الحكماء مقدارَ حركة الفلك الأطلس، ويراه المتكلمون عبارةً عن متجددٍ يقدر به متجددٌ آخر موهوم، يقال مثلاً: آتيك عند طلوع الشمس، فإن طلوعها معلومٌ ومجيئه موهوم، فإذا قرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإيهام (4) ...

1_ أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة. تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون. الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان 1399هـ/1979م، الجزء الثالث، مادة: زمن، ص: 22.

2_ Jean Dubois _René Lagane _Georges Niobey _Didier Casalis _Jacqueline Casalis _Henri 2
Librairie Larousse, Paris_France 1971, .Meschonnic:Larousse:dictionnaire du français contemporain
_1127. 1126pages:

3_Paul Robert 3
Le grand robert de la langue française:Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue :Paul Robert 3
9, : Deuxième édition, Paris_France 1985, tome. Entièrement revue et enrichie par Alain Rey.française
.page:217

4_علي بن محمد الشريف الجرجاني:التعريفات. (عنى به:مصطفى أبو يعقوب. الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت-لبنان، دمشق-سوريا 1427هـ/2006م، ص:68.

وتجمع معظم المعاجم اللغوية العربية والغربية على أن الفضاء المكان الواسع الذي يجمع الأشياء، ويحتضن حركة الكائنات. جاء في "لسان العرب": "فضا: الفضاء: المكان الواسع من الأرض، والفعل فَضًا يَفْضُو فُضُوًّا فهو فاضٍ (...). وقد فضا المكان وأفضى إذا اتسع. وأفضى فلان إلى فلان أي وَصَلَ إليه، وأصله أنه صار في فُرْجَتِهِ وفضائه وحيزه؛ (...). والفضاء: الخالي الفارغ الواسع من الأرض. (...). والفضاء: الساحة وما اتسع من الأرض. يقال: أفضيت إذا خرجت إلى الفضاء. (...). الفضاء ما استوى من الأرض واتسع، (...) والصحراء فضاء"⁽¹⁾. وجاء في "معجم مقاييس اللغة": "فضى: الفاء والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على انقسام في شيء واتساع. من ذلك الفضاء: المكان الواسع. ويقولون: أفضى الرجل إلى امرأته: باشرها. والمعنى فيه عندنا أنه شُبِّهَ مقدّم جسمه بفضاء، ومقدم جسمها بفضاء، فكأنه لاقى فضاءها بفضائه"⁽²⁾. وهو وسطٌ مثاليٌّ ذو عناصرٍ خارجية، تتموقع فيه إدراكاتنا، ومكانٌ محدودٌ يحوي المدى المنتهي، ونظامٌ من القوانين المنظمة لتجاور الأشياء وترافقها ارتباطاً بالأشكال والأوجه والمسافات، والفارق الذي يميز بين الأشخاص والمشاعر والأفكار، ومدى كوني غير محدد يحتوي الأشياء جميعها⁽³⁾⁽¹⁾. يراه الحكماء ذلك السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح

1_محمد بن منظور:لسان العرب. المجلد الخامس عشر، مادة:فضاء، ص:157.

2_أحمد بن فارس:معجم مقاييس اللغة. الجزء الرابع، مادة:فضى، ص:508.

3_Paul Robert:Le grand robert de la langue française:Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française

الظاهر من الجسم الخوي، ويراها المتكلمون ذلك الفراغ المتوهّم الذي يشغله الجسم، وتنفذ فيه أبعاده. وهو نوعان اثنان، فضاء أو مكان مُبهم عبارة عن مكان له اسم نسيمه به، بسبب أمر داخل في مسماه، وفضاء أو مكان معيّن عبارة عن مكان له اسم سمي به، بسبب أمر داخل في مسماه⁽²⁾...

إن الفضاء أعظم من المكان وأرحب وأشمل منه، إذ يحتويه، ويجعله يسبح بين طياته، ويدور في فلكه. ويعد عنصراً من العناصر الجوهرية التي تشكل بنية النص الأدبي عامة، ومكوناً أساساً من مكونات علم السرد خاصة، بل إنه يعد من أكثر العناصر المشكلة له أهمية، ويتحدد في العمل من خلال أشكال، ويتخذ معاني متعددة، إلى أن يشكل أحيانا سبب كينونته. إن لكل متن علاقة ما بالفضاء، وحتى عندما يعدل السارد عن الوصف، فإن الفضاء يكون متضمناً في المسرد، ويحتاج أيُّ سارد إلى فضاء، يمتد تأثيره إلى أن يحتوي العناصر الداخلة في تشكيل السرد جميعها. ويمثل مسرحاً تجري فيه الأحداث، وتتصارع في ميدانه الرحب الواسع الشخصيات والأفكار، ويمنحها البيئة المناسبة التي تعمل فيها، وتعبر عن وجهات نظرها، ويحمل رؤيات الأبطال ورؤاهم، ويجسد منظور المؤلف، ويساهم في تطوير بناء العمل السردية، ويؤلف إطاراً محتوياً ومتفاعلاً مع بقية العناصر البنائية الأخرى. ويكتسح حياة الإنسان، ويعيش معه وفيه، ويشمله، ويلفه، ويحويه، ويشعر بكينونته، ويحل معه

1 _Jean Dubois _René Lagane _Georges Niobey _Didier Casalis _Jacqueline Casalis _Henri

. Page:456.Meschonnic:Larousse:dictionnaire du français contemporain

2_علي بن محمد الشريف الجرجاني:التعريفات. ص:126.

أنى حل، ويظعن معه أينما ظعن، ويرخي بسدوله وظلاله عليه حيثما ولى وجهه، ولا شيء يتحرر من ريقته، ولا كائن يوجد دونه. ويؤدي وظائف عدة، أبرزها أنه في مقصوراته المغلقة غير المحددة يستوعب الزمان مكثفاً، وأنه يمثل كل شيء لما يعجز الزمان عن تسريع الذاكرة أو تنشيطها⁽¹⁾، وأنه يشكل بؤر بعض المتون السردية الدلالية، وينتج أنسجةً من الأفضية المفتحة على حمولات تكشف ما يصهره المجتمع من الأحلام والآمال والعذابات والآلام والإقصاء والتشطي والتهميش والنسيان والتضاربات والتناقضات. وينقسم إلى أربعة أقسام، هي الفضاء معادلاً أو الفضاء الجغرافي/L'espace géographique، والفضاء النصي / L'espace textuel، والفضاء الدلالي/L'espace sémantique، والفضاء منظوراً أو رؤية، ويصنف إلى أشكال، منها الأليف الحميمي والمعادي الشرس، والمفتوح المنفتح والمغلق المنغلق، والواقعي والخيالي، والعتبة والواصل...

أولاً: الزمان في "شجيرة حناء وقمر"

انطلقت أحداث رواية "شجيرة حناء وقمر"⁽²⁾ للروائي أحمد التوفيق⁽³⁾ قبل خلافة القائد همو أباه علا بمدة وجيزة، وانتهت بمقتله، وعودة زوجته السالمة إلى أهلها،

1_ F, 1ère édition 1957, 12ème . U. Collection Quadrige/P Gaston Bachelard:La poétique de l'espace.

de France (P. U. F), Paris_France, pages:27_28. édition Décembre 1984, Presses Universitaires

2_ أحمد التوفيق: شجيرة حناء وقمر. دار القبة الزرقاء للنشر_مراكش، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1419هـ/1998م.

3_ أحمد التوفيق: أديب مغربي، ولد عام ثلاثة وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية (1943م) بالقرب من مدينة مراكش. إهتم بتاريخ البادية المغربية الإجتماعي خلال القرن

التاسع عشر الميلادي (ق:19م)، وبن الرواية كتابةً. له كتب، منها: جارات أبي موسى. دار القبة الزرقاء للنشر والخدمات الثقافية، مراكش، الطبعة الثالثة، مطبعة

ومكوئها بينهم أقل من ثلاثة أشهر. حينئذ، كانت الطفلة نجمة قد بلغت عامها التاسع، وكان هو قد تزوج السالمة إثر توليه القيادة مباشرة. إذن، إذا تمت لملمة أجزاء هذه المدة، فإن عمر الرواية كاملة قد بلغ عشر سنوات، أو تجاوزها بقليل. وعرفت وقائعها عموماً سيراً زمانياً تصاعدياً عمودياً، وشهدت تسلسلاً وتنظيماً واضحين. بدأ ذلك بتولي هو مقاليد الحكم، وتطور بتوسع نفوذه، وبلغ ذروته باستيلائه على مشيخة أحمد نيت ابراهيم. وبعد ذلك، أخذ اتجاه الأحداث مسيراً عكسياً تنازلياً، إذ فقد القائد تدريجياً امتيازاته وأقاربه، فهجره ابن الزارة مستشاره، وماتت كيما زوجه وأحمد نيت ابراهيم صهره...

1_ سير الزمان

أ: الإسترجاع

إن الإسترجاعَ تقنيةٌ سرديةٌ موجودةٌ في السردين الكلاسيكيِّ والحديث، وسمِّي استرجاعاً لأن السارد يتذكر أحداثاً سبقت، أو يسترجع أوصافاً سلفت، فيعود بالقارئ إلى الماضي لإنارة الحاضر. وهو يعين على تلوين سطح الحكيم، وتوقيف تدفق الزمان، والابتعاد عن التعجيل بوضع حد لخطاب المتن. ويطلق عليه أيضاً التذكر، والعودة إلى الورا...

النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1425هـ/2004م. _السيل. دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1998م.

_غربية الحسين. الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1421هـ/2000م. _الاجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إبنولتان: 1850_1912).

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء_المغرب 1398هـ/1978م.

ضمت "شجيرة حناء وقمر" مجموعةً من الاسترجاعات، منها أن المستشار ابن الزارة تذكر ماضياً مريراً قضاة مع زوجته، إذ اعترض طريقهما شيخ قبيلة وابن عمه، وأطلقا عليهما النار من بندقيتهما، فأصيب الرجل بجروح، وهلكت المرأة. يقول السارد: "ما زال ابن الزارة يذكر يوم الرحيل مع صاحبتة، (...). وكان بباب الدار رجلان مسنان يقلبان بندقيتي بارود، (...). سدد إليه الرجل الذي أمره بندقيته، وضغط على الزناد، وانطلق البارود. لكن ابن الزارة لم يصب إلا برشاش جانبي تسبب له في حروق تحملها متجلدا وسموم الألم تقطع أحشاءه. (...). سدد الرجل، وأطلق النار على المرأة، فهوت من فوق الصخرة وهي تصرخ. (...). فلما كان تمام الشهر، لم تعد العقاقير تفيد في تخفيف حمى جسمها، إذ اشتدت حتى كأن جسمها خارج من أتون الحداد، وغطس في غدير الماء. ثم أصابها إسهال حاد حتى نشف جسمها من الماء، ثم اشتد عليها ثلاثة أيام، ولفظت أنفاسها الأخيرة..."⁽¹⁾

يعكس هذا الاسترجاع سبب سادية ابن الزارة، وكرهه الشيوخ، وحقده عليهم، فكان يجرس القائد هو على غزوهم، والفتك بهم، وسلب ممتلكاتهم، إنتقاماً منهم لامراته...

ومنها أن موت كيما ذكر السلامة بلحظة من طفولتها، إذ كانت تملك طائراً جميلاً متعدد الألوان، يشبه الهدهد. ذات ضحى، إنشغلت عنه، ولما قفلت إليه، ألفت إحدى أفراس أبيها قد داست قفصه، فطار في الهواء، وبكته كثيراً، وأن أغصان العرر

1_شجيرة حناء وقمر. صص: 16_18.

فوق قبرها ذكرتها بسفرها معها إلى أهلها في الجبل. يقول السارد: "أما السالمة فقد كانت بين ذراعي أم كيما تواسيها كأنها هي الأم التي فقدت بنتها، (...)، وكانت تسمع الجنازة عند خروجها، فقالت في نفسها: هكذا يكون الأمر، يطير الطائر، ويودع القفص في التراب، ويعود الناس. ودعتها فكرة الطائر إلى ذكرى من طفولتها يوم مر على دارهم من جملة الجوالين رجل ذو عمامة خضراء تميز بها دون الرجال، يسمى بو براطل، يحمل على دابته أقفاصا مختلفة الأحجام بها طيور مختلفة الألوان، فكان أن أعطى السالمة مقابل زرع من خزين أبيها قفصا فيه طائر يشبه الهدهد في حجمه ولكنه متنوع الألوان، ليس في بلدها مثله، وكانت تنام به وتستيقظ، وهي طفلة في سن بنتها نجمة اليوم، وذات ضحى، كانت تستمتع كعادتها بمنظر السياسين وهم يغسلون الخيل في الإصطبل، وتنحت جانبا لقضاء حاجتها، فوضعت القفص على الأرض، ولما رجعت، وجدت أن فرسا تحركت، وداست القفص، وخرج منه الطائر، وحلق في الهواء. وبكت طويلا، وعزاها أهلها، ووعدوها بطائر أحسن منه. ولكنها نسيت، وكبرت. فما أشبه اليوم بالأمس، ولكنها لا تتوقع ولا تقبل أن تنسى كيما، (...)، فلم تتمالك أن فتحت مرة أخرى غرفة البرج بعد العصر، تلك النافذة التي ينظر منها جهة المقابر هناك في سفح الجبل، فإذا القبر نقطة خضراء داكنة لا تميز بشيء بين القبور إلا بجدة أغصان العرعر الموضوعة عليها مثقلة بالحجر اتقاء نبش الوحوش. وتذكرت السالمة رائحة هذا العرعر الفواح التي أمتعت أنفها حين السفر إلى بلد كيما، وتذكرت أن القبور في بلدها هي لا تغطي بهذا الشجر الذي يقطع ليوهب للموتى هنا، وإنما يوضع عليه السدر المتوفر هناك. وتذكرت ما حكى

لها من كون والد كيما إنما انهزم أمام مكر مقاتلي القائد لأنهم شرعوا في قطع أشجاره وهم يعلمون أنها نبتت في أحشاء وجدانه، (...). وتذكرت شجرة الحناء التي قالوا إنها عجزت لوحدها منذ عهد طويل عن صرف الشر عن أهلها، تذكرت كل ذلك." (1)

يصور هذا الاسترجاع تعلق السلامة الكبير بضرتها كيما، وحزنها العميق لفرقتها. فهي بذلك فقدت طائراً ثانياً (كيما) تفانت في عشقه، ودَهَّهَا حُبُّه، وستبكيه طويلاً، ولن تنساه ما بقيت حية. ويبرز علاقة أهل كيما الوطيدة بأرضهم، وتضحيتهم من أجلها بأنفسهم. ويشير إلى أسطورة شجرة الحناء والقمر التي سمعتها السلامة من في (فم) إحدى نساء الجبل...

ب: الاستباق

إن الاستباق مقطعٌ سرديٌّ، يسرد أحداثاً سابقةً لأوانها، أو يتوقع حدوثها. يمثل عكس الاسترجاع، ويسمى القفزة إلى الأمام كذلك.

شملت "شجرة حناء وقمر" عدة استباقات، منها أن السلامة قد تنبأت بقرب موت كيما حين أصابها الشر، يقول السارد: "...). وفكرت أياما في هذا الذي

1_شجرة حناء وقمر. صص: 235_237.

يحدث بينها وبين كيما، وقالت في نفسها: لعلها ستموت، لأن حياة جديدة بدأت تدب في أوصالها بعد فوات الآوان، هذه هي الدنيا." (1)

وبالفعل، فقد لفظت كيما أنفاسها، والتحقت روحها ببارئها تعالى، يقول السارد: "وبعد وقت قليل، إنتهت المنازعة، وأسلمت كيما روحها لله." (2)

ومنها أن القائد هو قد أحس باقتراب زوال سلطته، وشعر بنهب ما تملكه، قال السارد: "كان القائد هو يسمع بدافع لذة التملك والتسلط، ولكنه كان يشعر غير ما مرة برغبة عارمة للقيام إلى ذلك الحاكي المتلذذ بآلام غيره وإقائه على الأرض والدوس بالأقدام والبصق على وجهه، ذلك لأن هو اخترقه غير ما مرة كشف وامض، رأى فيه لثاما يذهبون في يوم واحد كل ما تملكه وجمعه في سنين من المحنة والكد. لذلك فهو يتصور محنة الآخرين في مثل ذلك الموقف، بل إن ما رآه في خياله يقظة صار يوقظه من نومه على شكل كوايس مزعجة، وتساءل في نفسه غير ما مرة وهو في اليقظة، كيف يمكن أن يحدث ذلك بالفعل؟ واستبعد أن يقع لأنه يعرف كيف يحصن نفسه. ولا يخطر بباله أن أحدا ممن على وجهها يمكن أن يناله بسوء." (3)

1_شجرة حناء وقر. ص: 207.

2_المرجع نفسه. ص: 234.

3_شجرة حناء وقر. ص: 246.

فحدث ذلك فعلا، وتحقق استباقه، قال السارد: "وعندما انتهت الخطبة، وأقيمت الصلاة، تحرك الابن الأصغر للشيخ أحمد حتى يصلي وراء القائد همو. وفي وقت السجود، أخرج هذا الابن خنجرا من تحت جلبابه، وارتمى على القائد همو، وطعنه في ظهره طعنات قاتلة. لم يصرخ القائد ولكنه سقط على الأرض من حينه وقد فارق الروح، (...)، ولم يهتم الناس به وإنما أهمهم الحدث: اغتيال القائد ومصرعه والتهافت لنهب خزانته.

رأى الناس فرسانا يدخلون دار القائد، ويختطفون السالمة وينتها نجمة وخادمتيها، ويخرجون من باب المدينة الذي من جهة السهل، ورأى الناس فرسانا آخرين ومن بينهم أبناء الشيخ أحمد وقد خرجوا من الباب الذي من جهة الجبل، وأكلتهم الشعاب. هاج الناس، وماجوا، ولم يهتموا بدفن القتيل ولكنهم اهتموا بنهب داره حتى تركوها قبل أن يرخي الظلام سدوله في ذلك اليوم خاوية عارية حتى من أخشاب سقفها." (1)

ت: الوقفة

تدعى الوقفة البطء والتبطيء والتعطيل أيضا، وهي "الحبس بين المقامين، وذلك لعدم استيفاء حقوق المقام الذي خرج عنه، وعدم استحقاق دخوله في المقام الأعلى،

1_شجرة حناء وقرم. ص: 249.

فكأنه في التجاذب بينهما"⁽¹⁾، وتعد تقنيةً يلجأ إليها السارد بغية توقيف الحكيم وتعطيله. وأهم ما عكسها الوصف:

ت: 1_ الوصف

إن الوصف هو تصوير الشيء كما فيه من الهيئات والأحوال⁽²⁾، وأجمله ما وصف به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع⁽³⁾...

إكتسح الوصف المتن اكتساحاً، وغطى مساحته جلّها، وبرع فيه السارد براعةً كبيرةً، خاصة لما تعلق الأمر بوصف الأمكنة، وإبراز ملامح الشخصيات، والحديث عن الطبيعة. من ذلك قوله مثلاً: "خرج ابن الزارة في تستر تام تحت طي الظلام (...). ومع ذلك، فقد زاد الفرسان في التحوط حتى كادوا يخنقون أنفاس الخيل والبغال، وكانت الدواب نفسها قد أذعنت لقبضة اللجام المتوترة. وعرفت أن من كانوا على ظهورها لا يريدون منها أن تمس الأرض إلا مساً خفيفاً. وكانت الحركة تتقدم بإيقاع تحكمه حتى نخسات المهامز وشدات اللجام، فكان الفرسان من شدة الخوف قد استقام الشعر في رؤوسهم، وتلوت فيهم الأحشاء، وكانت الخيل تعاني عذاب الفرسان حتى إنها كانت تعض على حديد اللجام، وقد كادت تقطع منها

1_ علي بن محمد الشريف الجرجاني: التعريفات. ص: 141.

2_ فدامة بن جعفر: نقد الشعر. تحقيق وتعليق: محمد عبد المعيم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، بدون تاريخ، ص: 130.

3_ الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده. حققه، وفصله، وعلق على حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الخامسة، بيروت-لبنان 1401هـ/1981م، الجزء الثاني، ص: 294.

الأشداق، حركة أحرست فيها رنات الأجراس والسلاسل، كلما تقدمت كوكبة الغزو كلما غلب ما تقف على ما تسير. ولما دار العسكر في المنعطف الأخير، ظهرت قصبة الشيخ أحمد في رأس تل عال وسط الوادي، تحيط بها أجراف من كل جانب، وظلال أبراجها تكاد ترقع أسفل التل تحت ضوء قمر لو سقط فيه إلى الأرض سمن الزيات لجمعه. وهناك في مواجهة القصبة أشار ابن الزارة بالوقوف، لأن الخيل قد استقامت آذانها علامة على القرب من شيء مخيف، وأكثر ما تفعل ذلك عند وجود عدو محتبيء. وزاد من توحس المقاتلين أن نافذة غرفة كل برج في القصبة بها ضوء يبدو خافتا وراء خشب مخرم، يمر أمام كل نافذة طيف شخص واحد، ثم يعود. لم يسبق لابن الزارة ولا لمعظم المجيشين معه أن رأوا هذا الحصن ولا حصنا مشابها له في الكبر والمنعة، يكاد يمتد على سعة مدينة صغيرة، يعلو كل ركن منه برج سامق يضيق كلما ارتفع، وسطح الأبراج والسطوح التي بينها محاطة بجدران مقطعة حوافها بشرفات مفتوحة من الأعلى تصلح للرماة. وكلما أضعف ضوء الفجر المقترب كثافة إزار الظلام، كشر الحصن عن أنيابه أمام الغزاة، حتى تراءى لبعضهم أنه الموت الزؤام، إذ لا يقدر أحد أن يصعد إلى ذلك التل وهو يهاجم. وتيقن ابن الزارة نفسه أن الشيخ المطلوب أسد في عرين حقا." (1)

وقوله كذلك: "وبعد مضي نصف الليل أو يزيد من السير، أطل القمر من وراء المرتفعات، وجعل الراحلين يكشفون عن بعضهم البعض، تتبعهم الظلال، وتسلمهم

1_شجرة حناء وقمر. صص: 117-118.

المنعطفات إلى سفوح لا تنتهي، الشجر والحجر وكل شيء في ذلك الليل ينعم بالسكون انتصبت شخوصا تكاد تتكلم، إلا أن وقع الحوافر وحده يسمع، والخفراء لا يكاد يسمع لوطء أقدامهم صوت، كل آخذ بذيل دابة، والبغال معتادة على مسالك الشواهد مشفقة على الركاب، متمهلة حيث ينبغي، لها أعين ترى بها حالك الظلام، فما بالك والقمر قد نشر أجنحة نوره على تلك القمم والوهاد، ففضحها. وفي الثلث الأخير من الليل، كان القمر قد قضى ما عليه من الخدمة في تلك الليلة، واحتجب، وانتصر الظلام من جديد في هزيع من الليل ما لبث الفجر أن كنسه يجلي تلك المراقي والسوامق أمام أعين مثقلة بالنعاس وأجسام هدها كلل مشي ليلة بأكملها، لكنها انتعشت بنسيم الصباح، وأيقظت منها الجفون شوارق أنوار احتفلت لها قبل أن تختفي نجوم لامعة تخلفت عن ركب الليل لقوتها، معاندة، كأنما كانت تحرسه. أماط نور الصباح خمار الليل، فأسفر عن ركب بهي تسير فيه نبيلتان تحتلان منه وسطه، تهفو إليهما قلوب من تقدم ومن تأخر، فهما الغاية تتبعهما الخادمتان المرافقات، وكل همة الفرسان الحراس، وهم من أعيان القبائل، في الوصول بهما على المرغوب من الراحة ومن الصون الواجب إلى منتهى الطريق، وقد اختيروا من ذوي الأمانة والشجاعة ومن يليق بأن ينسب إليه شرف مرافقة جواهر الخدر وربات الحجال. (...). وكان كل ههما أن ترى تفاصيل تلك القمم (...). تغطت بالثلج أو نفضت ثوبها الأبيض، ولبست ثوبا داكنا مما يكسوها به الشجر، أو تغطي قمما من أصلع الحجر، وقد انتشت في سفرها بما كانت تشم من عطور نباتات (...). فتتميزها وكأنما تقوم بتقطيرها في أنفها رحيقا رحيقا قبل أن تعيء بها الرئتين، وقبل أن

تنتشي بها أحاسيسها، ويمتلك عبقها أوصالها. عرس للأنف وعرس للعين في تلك الجبال، (...). استأنف الركب سيره بعد الظهر، وكان قد ارتفع عن كل السفوح التي فيها النبات، وتسلق جبالا محجرة كأنها في أشكالها أنياب الدهر المكشرة في وجه السماء.⁽¹⁾

وقوله أيضا في وصف الشخصيات: "إذ ذاك، تسللت خادمتا السالمة إلى الجناح الذي به بيت العروس من الرياض الجديدة، واقتربت بتلكؤ شديد من شرف غرفة الرقاد، فإذا بهما تفاجئان العروس وخادمتيها في وضع لم يكن يتوقعنه أبدا، ذلك أنهن كن في الصلاة، صلاة بطيئة كصلاة شيوخ الرجال، ورأين امرأة حسبتها ملكا، وذهلن من بهائها وجلالها الفاتن، نضارة شابة كعاب، تفجرت في وجهها البادي فتنة أنوثة خيالية، تسلب منها اللحاظ والرموش ونصاعة الغرة، ويستتر منها المنديل الحريري الأسود شعرا يتدلى على نصف قامة المرأة.

عادتا لسيدتهما مرتبكتين وأنفاسهما مضطربة ولعابهما يسيل وحييرتهما شديدة، كما لو كان عليهما أن تعودا بخبر مخالف يفرح سيدتهما، وكما لو كان مما رأته ما يدخل على قلبها النكد. وبعد تردد وكلام متقطع، فهمت سيدتهما حالهما، وقالت: أفصح! أنا لا أريد أن تكون ضرتي هذه معيبة في شيء وإلا سقط مقامي عند الناس، أريدها ندة لي في الجمال والأنفة والبهاء وكل شيء، هل وجدتماها قردة عرجاء من الجبل، جاء بها هو ليخرج كرامتي، أو ليرد على إهمالي له وإعراضي عنه؟

1_شجرة حناء وقرم. صص: 145_146.

أفصحاً! إذ ذاك، زال عن الخادمتين ارتباكهما، وانطلقتا تصفان العروس وبهاءها في البذلة البيضاء وفي الركوع والسجود، وكيف أن قوامها هو قوام مولاتهما، وكيف أنها لا تفوقها في شيء، ولكنها لا تزري بها في شيء. فقالت السالمة: لقد بردتما حرقتي، وأطفأتما جمرة غيرتي، فامرأة بهذا الجمال لا تغار منها امرأة في جمالي، فالغيرة بين نساء شاكات في جمالهن وغير متذوقات للجمال إذا بدا في غيرهن ليقدرنه كما ينبغي، إنني سأحبها، وأنا في حاجة إليها، (...)، سأحبها، وسأصلي كما تصلي.⁽¹⁾

أدت تقنية الوصف في الرواية إلى إيقاف عملية السرد وتعطيلها وإطالة عمرها، وساهمت في رسم صورة فنية وجمالية وبلاغية بها، بغية وضع المتلقي داخل المشهد الذي يرنو السارد إلى نقله، ولم تقف عند حدود تصوير الطبيعة وما تحويه من الأمكنة والأفضية، بل تعدتها إلى أن سبرت أغوار الشخصيات، وعكست أحاسيسها النفسية، وأظهرت بواطنها وكوامنها...

ث: التسريع

يشكل التسريع عكس الوقفة، وهو وسيلة يلجأ إليها السارد لتكثيف زمان المسرود، والرفع من وتيرة سيره. ظهر جليا في التلخيص:

1_شجرة حناء وقمر. صص: 132_133.

ث:1_ التلخيص

يتم التلخيص عندما تقدم مدة غير محددة من السرد ملخصة بشكل توحى معه بالسرعة⁽¹⁾، ويعمل على تسريع توالي الأحداث⁽²⁾، والقفز على ما هو أقل أهمية داخل المتن⁽³⁾، وأداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة. ويسمى الخلاصة والإيجاز والإختزال...

يتحدث السارد في الفصل الرابع عن جمع القائد ولد الشهباء أعوانه ونصحائه، وترتيب حملة إعادة المنشقين عنه، وتجهيز الفرسان وخروجهم، وتفرقهم على القرى، واقتحامهم إياها، وأسرهم شبانها، واقتيادهم ماشيتها، والإحتفال بالنصر، يتحدث عن هذا كله في عشرة أسطر فقط قائلا: "أما القائد العربي ولد الشهباء فما أن غادر ابن الزارة داره حتى جمع أعوانه والنصحاء من أشياخه ورتب معهم حملة إعادة المنشقين أهل وادي الخروب إلى إبالته وطاعته. ومن أجل ذلك جهز مائة من الفرسان خرجوا سرا وتفرقوا على قرى أهل وادي الخروب، بدأوا باقتحام دور أهل اليسر فيهم وأسروا الشبان منهم واقتادوا ما في الحظائر من الماشية وساقوها إلى القائد الذي طلبها

1_جيرار جينيت وآخرون:نظرية السرد من وجهة النظر إلى التغير. ترجمة:مصطفى ناجي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، مطبعة منشورات كوثر، الدار البيضاء_المغرب 1989م، ص:126.

2_je que sais_je 1ère édition, Presses Universitaires de France (P. U. F), Jean Michel Adam:le récit_2 .France 1984, page:42_Paris

3_(P. Roland Bourneuf _Real Ouellet:L'univers du roman. 1ère édition, Presses Universitaires de France_3 U. F), Paris_France 1972, page:59.

تعويضاً له عما ظل يؤديه عنهم للمخزن في الواجبات المحسوبة جملة على إيالته. واحتفظ بالشبان في ضيافة لائقة حتى جاء أهلهم بعد أيام وقد تيقنوا أن قائد قصبة الجبل قد أسلمهم لسيدهم الأول. جاء معهم شفعاء من القبائل الأخرى، فقبلت الشفاعات وتم الصلح وأطلق الأسرى، وكان احتفالاً كبيراً حضره أعيان إيالة ولد الشهباء، وجرى فيه الفرسان، وزينت الأفراح وعلت فيه الأصوات بالأهازيج، وزالت به المعرفة عن القائد وتجدد عنفوان الهيبة في داره.⁽¹⁾

ويذكر في الفصل التاسع عشر إقامة همو عرساً فاخراً حين تزوج كيما وما رافق ذلك من قيل وقال في تسعة سطور، فيقول: "أما القائد فقد أقام بعكس أهل عروسه عرساً فاخراً أصر على أن يحضره كل أهل العروس ما عدا والدها الذي أشفق عليه من مشقة الطريق، وكاد جميعهم يعودون وهم مقتنعون أنهم غلطوا في مشاعر إساءة الظن بالقائد. وقد قالوا إنه أراد بهذا الزواج أن يستديم ولاء الشيخ، ولكنه في نفس الوقت أظهر أنه قد هام بكيما بعدما قيل له عنها ما قيل من المحامد والصفات. غير أن الأم بعد أن تأكدت أن بنتها هي رابعة زوجة للقائد دون المطلقات المحتفظ بهن في حريمه قد اكتأبت وعاد إليها الخوف على بنتها من الضرات، ولا سيما من بنت قائد السهل التي لم يظهر لها أثر أيام العرس الثلاثة التي قضتها الأم بصحبة بنتها، ولذلك

1_شجرة حناء وقرم. ص: 27.

أكدت على أمور كثيرة ينبغي أن تنتبه لها الأمتان اللتان أعطتهما لكيما ضمن جهازها"⁽¹⁾...

ث: 2_ الحذف

يقصد بالحذف حذف مدة من المحكي، والسكوت عنها تماما، وتجاوز مدد زمانية، تتلاشى إلى العدم.⁽²⁾

يسرد السارد الحوار الذي دار بين ابن الزارة واليهودي باروخ حول صائغ يحتاجه همو، وبعده مباشرة، يقفز على ثلاثة أيام، فيقول: "وبعد ثلاثة أيام استؤذن القائد في دخول باروخ والصائغ شليمو."⁽³⁾

يلاحظ أن هذا الحذف محدد، وأن مدته معلومة، وهناك حذف غير محدد، يتجلى مثلا في ذكر السارد استعداد همو للسفر إلى فاس، ليعقب ذلك قائلا: "وبعد أيام قليلة حل موعد السفر."⁽⁴⁾

1_ المرجع نفسه. ص: 129.

2_ جان ريكاردو: قضايا الرواية الحديثة. ترجمة وتعليق: صباح الجهميم، وزارة الثقافة، دمشق_سوريا 1977م، ص: 254.

3_ شجرة حناء وقمر. ص: 36.

4_ المرجع نفسه. ص: 67.

2_الزمان من منظور الشخصيات

أ_الزمان عند القائد همو والمستشار ابن الزارة

كان الليل زماناً خاصاً يختلي فيه القائد همو بمستشاره ابن الزارة، ليستشيره في أمور حكمه، وسبل توسيع نفوذه، أو ليأخذ رأيه في بعض أزواجه. كما استغلا هذا الزمان في عملية الغزو، والإستماع إلى أنغام فرقة العازفين والقينات، للتسلية والتخفيف من وطأة الأرق والقلق. وفي النهار، كانا يجتمعان صباحاً داخل القببية، لكي يتناولوا وجبة الفطور، ويتجاذبا أطراف الحديث حول ما يجري بالإيالة، وما يتعلق بمستقبلها. وفي صبيحة يوم الخميس، أي في يوم السوق، كان همو يجلس ليفصل بين أهل الجبال، ويأخذ الهدايا التي كانوا يأتونه بها. كما أنهما كانا يستنشقان هواء ما بعد العصر في الجنان المجاورة للقصبه، ويتناولان الحريرة.

ب_الزمان عند السالمة

عملت السالمة أول الأمر على مساعدة زوجها القائد همو في رفع صرح سلطته، لكنها، لما رآته غليظ الطبع، لا يوليها ما تستحقه من عناية واهتمام، أضحت تقضي نهارها تلاعب ابنتها نجمة، ولا تضحك إلا في وجهها، وتظهر شيئاً من التأفف والانشغال. وفي الليل، كانت تتظاهر بالتعب والعياء، ولا تعني بمشاغل القائد. حين كانت في منزل أبيها، كانت تخرج صباحاً إلى الإصطبل لرؤية الخيل وتفقدتها، وفي وقت العصر، كانت تحضر فرجة الحلقة.

ت_الزمان عند كيما

صرفت كيما بعض وقتها في التعبد وأداء الفرائض، وبعضه في مقاومة المرض. إذ شوهدت في صلاة بطيئة كصلاة شيوخ الرجال، وحل بها الشر بعد عصر يوم من الأيام، وتحدث منها رجل بصوت غليظ، ووقع ممن تحدث منها التهديد بقتلها، واستمرت معاناتها إلى أن قضت نجبها.

3_الزمان التاريخي

لم يحدد الروائيُّ زمانَ روايته التاريخيِّ، ولا أي مؤشر مباشر يضبط المرحلة التي تحكي عنها. يتجلى ذلك في كونه اكتفى بذكر مصطلح السلطان دون اسمه، ودون حقبة حكمه. وتؤرخ الرواية للبادية المغربية، ولا تعير المدينةَ كبيرَ اهتمام. وهذا يوحي باحتمال أنها ربما تعكس بعض مظاهر مغرب القرن التاسع عشر الميلاي باحتفال (ق:19م)، وبعض خصائصه، لكون صاحبها اعتنى في بحثه بتاريخ البادية المغربية خلال هذا القرن.

إنطلقت أحداث "شجيرة حناء وقمر" قبل خلافة همو أباه بمدة وجيزة، وانتهت بمقتله، وعودة السلامة إلى أهلها، ومكوئها بينهم أقل من ثلاثة أشهر. حينئذ كان الطفل نجمة قد بلغت عامها التاسع، وكان هو قد تزوج السلامة إثر توليه القيادة مباشرة. إذن، إذا تمت ملمة أجزاء هذه المدة، فإن عمر الرواية كاملة قد بلغ عشر سنوات، أو تجاوزها بقليل...

ثانياً: الفضاء في "شجيرة حناء وقمر"

جرت أحداث رواية "شجيرة حناء وقمر" في مكانٍ عامٍّ هو المغرب، وتوزعت مسيراتها السرديةً عددهً أمكنةً خاصةً، أهمها حصن السوق، وبيت همو، وشرفة البرج، والسجن، والجبل، وحصن سكورة، ومدن فاس والدار البيضاء ومراكش، والملاح، والجبال الوسطى، والضريح، والسوق، والحمام، والسهل، والوادي، والقصبة، والرياض، والدهليز، والفج، والسفح، والقعدة، والشعاب، والدار، والإصطبل، والقلعة، والمشور، والمسجد، والقبعة، والإيالة، والغابة، والواحة، والبرج، والمنزل، والحلقة، والنافذة، والغرفة، والمغارة، والصخرة، والسقف، والمقبرة، والمائدة.

أ: حصن السوق: فضاء الإعمار والدمار

شكل حصن السوق الفضاء الأكثر حضوراً في الرواية، ومنه انطلقت معظم أحداثها. إهتم القائد هُمو بميدان العمران والإعمار في عاصمته حصن السوق، فبنى حماماً، ورياضاً جديدةً تشبه القصر استعداداً لاستقبال السلطان، وداراً للجارية الشركسية، كما اتخذ الحرس، واشترى النفيس من أواني الصين.

لكن هذا المكان ما لبث أن تحول فضاء دمار، بدأ ذلك حين أحس هو بأنه لم يعد يطيق غش الخدام، وتقاوس العبيد، وسوء تدبير المكلفين بالمهمات، وانتهى بمقتله. حينذاك، هاج الناس، وماجوا، ولم يهتموا بدفن القتيل، ولكنهم اهتموا بنهب داره حتى تركوها، قبل أن يرخي الظلام سدوله في ذلك اليوم، خاويةً عاريةً حتى من

أحشاب سقفها. هذا، إلى جانب اختفاء شخصيات كانت تؤثت الحصن، إذ هجر الوزير ابن الزّارة، وقضت الزوّج الثانية كيما، وعادت الزوج الأولى السالمة صحبة ابنتها نجمة إلى بيت أبيها.

ب: بيت همو: _فضاء العزلة والغربة

إنشغل القائد همو بأمور الحكم عن كل شيء، فشكل بيته مصدرَ عزلةٍ وغربةٍ وقنوطٍ لأزواجه وخاصة السالمة. مما جعلها تنعزل في غرفتها، وتبكي مصيرها، وتخفف من وطأة عزلتها بالاستعانة بكيما ضرّتها، التي أشعرتها بالأنس في دار ظنتها ستكون لها بمثابة قبر الغربة إلى الأبد، وكانت تتوق إلى الفرار لولا ابنتها نجمة التي كانت تشدها إلى هذا البيت المنعم بالوحدة.

إنعكس ذلك سلباً على نفسيّتها، إذ وجدها أبوها القائد ولد الشهباء في ذبول كوردة تدوي، وألقى عينيها غائرتين، ووجهها تبرز منه العظام، ولكنها ما تزال المخلوقة الحادة الإحساس، والزائدة الإباء، فلم تحدّثه إلا عن ابنتها نجمة، وجمالها وكلامها وفطنتها، فحمد الله على أن بنتها تشدها من السقوط.

ت: شرفة البرج: _فضاء الإنفتاح على الحياة والموت

حملت شرفة البرج، تبعاً للمكان الموجودة به، دلالتين متعارضتين، فهي، في برج ولد الشهباء، نافذة تطل منها السالمة على ميدان سباق الخيل، وهناك كانت تقعد أمام شبك الشرفة تنظر إلى أسراب المتسابقين. توجد إذن خيل وحركة وسباق

ومتسابقون، وبالتالي، فثمة حياة تدب. وهي، في برج همو، تنفتح على الجماد والموت، إذ جلست السالمة في شرفة البرج المجاور لغرفتها، وهي تطل على ميدان أجرد، ووراء ذلك الميدان أحمر، يحاول بعضها أن يعض بعضها بكيفيةٍ عنيفةٍ وغير سديدةٍ.

ث: _السجن: _فضاء القبر والجحيم

بني القائد همو سجنًا بجوار قصبته، ليحكم به قبضته على معارضيه وأعدائه، وليزج فيه بمن سولت له نفسه شيئاً لا يخدم مصالحه، ولا يساير سياسته. هذا السجن يبلغ خبره الآفاق، فيرى القادمون أسواره تصعد، ويحسبونه قبراً كبيراً، يقبر فيه الناس الأحياء رفقة الأفاعي الناهشة والعقارب اللادغة، والجردان التي تنافس الموجودين به في ما يمنح لهم من القوت القليل، وبيوته ضيقة، لا تسع إحداها إلا الحنش واقفاً، وأنشئت بالقرب منه مقبرة تخص أمواته.

كُلف الحدادون من شتى أنحاء الإيالة بأن يصنعوا السلاسل الثقيلة التي تتعب بحملها الدواب، وطولب النجارون بصنع عصي غليظة حشيت رؤوسها بالمسامير على شكل دبابيس. يشبه الحمام حرارة، وجهنم زمهريرا وقله هواء، لأن نوافذه ضيقة أقرب إلى السطح منها إلى الأرض، وتتسرب إليه أشعة شمسية تشعر بالفرق بين النهار والليل فقط، ولا تبدد رطوبةً دهاليزه وروائح من يوجدون به من أشباه الإنسان، وجعلت على سطحه بقايا جيف تستهوي أسراب العقبان، فيظن الرائي أنها تلتهم هَامَ السجناء المالكين. واختير حراسه ممن يقطنون بعيدا عن القصبة، ويتحدثون

لسانا غير لسان ساكنتها، ومن الحاقدين على البشر، والذين يتلذذون بهاته المهمة، ولا يبغون عنها عوضاً. وكان كبيرهم قاسيا، ولا مكان في قلبه للرحمة أو الشفقة، ويخافه الأعداء أشد مما يخافون القائد نفسه.

ج: _الجل: _فضاء التشاؤم والفتك

مثل الجبل شبحاً قض مضجع القائد همو، تجلى هذا حين أرسل في طلب جارية شركسية، وأنبى أنه سيؤتى بها من ناحية الجبل، فاشمأز لأن الجبل بشعابه يحسر النظر، ويباغت بالمفاجأة، والقائد على كل حال لا يتفائل بالجليل. ولذلك، ضم صدره، وتكدر صفو خاطره. وظهر حين تضعض نفوذه، فأخذ يتصور كيف أن الذئاب ستداعى عليه من تلك السفوح لتأكله، وتنهشه، وتمزق أشلاءه، فهي ترتبص به كل يوم، وستداهمه. والإحساس نفسه أحس به القائد ولد الشهباء، فهو كان يرغب في أن يشمل نفوذه تلك القمم السود التي كان يراها دوماً من بعيد، ولا يأمن أن ينزل منها عليه في يوم من الأيام شر مستطير.

ح: _حصن سَكُورَة: _فضاء الصفاء والنقاء والزهد والتعب

ظهر هذا في كون شيخه أحمد نايت ابراهيم يجب قومه ويحبونه، إذ إن الورود تصلح في بلد هذا الشيخ بفضل حسن سيرته في إخوانه، ومحبته أهل قبائله. فلم يسبق له أن خضع لقائد ما عنوة، وتعامل أجداده مع السلاطين، وحازوا الظهائر منهم، وتوارثوا الأنفة والنخوة وعزة النفس والبر والتألف والشموخ.

وكان من عادة مَنْ في الدار أن يقوموا للفجر رجالاً ونساءً، وكان الناس في حصن سكورة يتبتلون في العبادة وكأنهم أعلموا أن الحشر يكون قبل مضي العام. كما أن النساء كن يجلسن يوم الجمعة بعد العصر على هيئة مؤثرة لتلاوة كتاب بلغة الأمازيغ، فيه أجمل المواعظ، يسمى بحر الدموع، ويرتلنه للتعبد.

خ: _مدينة فاس: _فضاء الرغبة والرغبة

أثارت مدينة فاس، ممثلةً في السلطان، شعورين متباينين لدى القائد همو، فهو من جهة، يرغب في زيارتها لتعبه ظهير خلافة أبيه علا، وتبسم السلطان في وجهه، فانتشى فرحاً، وزار إيلته، فاكتملت فرحته. وهو من جهة ثانية، يبعث ذكرها خوفاً لديه شديداً، فحين ذهب لزيارة سلطانه، كان من آخر من هوى إلى الأرض بين يدي الجلالة الشريفة، وكان صدره في حرج وضيق شديد من الخوف والهيبية في آن واحد، ولما بلغت رسالة من فاس، إندهش وتخوف، وزاد قلقه، ثم إنه لما تعدى حدوده الترابية، توصل من حضرة السلطان برسالة أفضت مضجعه.

د: _مدينة الدار البيضاء: _فضاء المتاجرة في الأسلحة

شرع القائد همو في بناء جهازه المخزني، ولكي يخدم أصوات المتمردين ضده، ويلجم أفواه الناقمين عليه، إحتاج إلى السلاح. فلم يجد غير الدار البيضاء مكاناً، إذ أرسل اليهودي باروخ إليها، وعاد بأحمال من عدة البنادق وغبرة البارود وحبته والرصاص. وتذاكر القائد وصاحبه، واتفقا على أنه الإذن الصريح في غزو عدوه الشيخ أحمد نايت ابراهيم، ولكن لا بد من شراء العدة. وفكرا في من يكون ثقة

وحازما حتى يوصل المال الكثير، ويعود بالعدة، ويحتاط حتى لا يشعر به أحد. كما بعث رجالا له بعشرة قناطير من المال، ولقد عادوا بالسلعة من الدار البيضاء.

ذ: السوق: _فضاء التجارة والتَّصيب والشُّجار والتَّعصب

شكل السوق مكاناً يؤمه الناس أسبوعياً يوم الخميس من جميع الجهات قصد ممارسة نشاط التجارة وتنصيب القواد، وملتقى الكسابين الأكبر، إذ المعاملات فيه مضمونة، لا يغش أحد أحداً بائعاً أو مشترياً، وتبتاع فيه الخيل المسومة، كي تقدم هدية للسلطان. كما مثل مورد أخبار العامة ومعلوماتهم، ومجمع الفصل في أمورهم واختلافاتهم، ومقر تبادل الرسائل، ومركز الشجار والتعصب والفتنة وتدير المؤامرات.

ر: الحمام: _فضاء النِّظافة والتَّصدق والرَّاحة

تجلى دور الحمام في مساعدة الناس على إزالة أوساخهم وقذاراتهم مقابل فلس واحد، وخصصت عائداته للتصدق على المحتاجين. وكانت تمارس داخله عملية التمسيد باستعمال زيوت تطرد التعب والعياء عن الجسم، وخاصة بعد السفر وقبل التمديد لطقس الحناء، وكانت أرضيته دافئة، ومياهه ليست حارة.

ز: الضريح: _فضاء الحرمة ودرء الشر والطمأنينة

مثل الضريح فضاءً ذا حرمة خاصة، يمنحه الإنسان الشعبي الصدقات في الاحتفالات، وحين الشعور بالخطر والخوف، وتبيت فيه العروس قبل زفها ذرءاً للشر، ويتواضع أمامه السلطان، ويقطنه المجذوب، ويحتمي به إلى أن يقضي نحبه، فيدفن فيه.

س: _الحلقة: _فضاء الفرجة والحكمة

عندما حلت السالمة، رفقة ضرثها كيما، ضيفاً على أهلها، نظمت الحلقة وقت العصر، وافتتحت بدخول طائفة الهداويين الذين قدموا قطعاً من إيقاعاتهم، تخللها كلام الحكمة. وبعد، تقدم الراوي، واسمه بوعمائم، حاذق في فن الحكيم، ورثه عن أبيه، وأبوه عن أجداده. يعتقد أنه مدعوم بروحانيين أحناف، يشترطون عليه مراعاة شهرة المستدعي بالورع. فحكى لجمهوره تغرية بني هلال، فطالب الحاضرين ثلاثاً بالصلاة على الحبيب محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ففعلوا، فقال: كان في سابق الزمان، وسالف العصر والأوان، قوم يدعون ببني هلال. واصل عملية السرد مستعملاً تقنيات خاصة، مجسداً ما يحكيه بحركات قدميه، فيقبل أو يدبر، وبقامته، فينتصب أو ينحني، وبقسمات وجهه، فيبتسم أو يضحك أو يسخر أو يقطب أو يتجهم، وبصوته، فيتودد أو يغضب، ممسكاً عصا في يده، جاعلاً منها سيفاً تارة، ونائياً تارة أخرى، ناعماً بها المسافات البعيدة، ومحدداً بها القريبة. ذلك كله، والمشاهدون رجالاً ونساءً كهولاً وأطفالاً مشدودون إليه وأنفاسهم عالقة، وأفواههم فاغرة، وأعينهم ساهمة مترقبة.

الخاتمة

إن رواية "شجيرة حناء وقمر" للروائي المغربي أحمد التوفيق روايةً خطيةً سببيةً، تنطلق من نقطة، وتنتهي إلى نقطة أخرى في تسلسل زمني صارم. ورُغم وجود تقنيات الإستباق، والإسترجاع، والتعطيل، والتسريع، والوقف، والحذف، فإن ذلك لم

يُجَلَّ بالتسلسل المنطقي العادي لها، ولم ينل من غائيتها، إذ إن السارد كان يطوي الأيام والشهور والسنوات سعياً إلى وضع نهاية أراها لشخصياته القطبية، وفي مقدمتها القائد هو، وزوجاه السالمة وكيفا، ومستشاره ابن الزارة. وعرفت، عموماً، سيراً زماتياً تصاعدياً عمودياً وتسلسلاً وترتيباً واضحين، فقد كانت وقائعها تتحرك، وتتنامى، وتتناسل باستمرار، لأن الزمان لا يتراجع، ولا يتوقف، بل يشق طريقه إلى الأمام، ويسير في اتجاه نهايته دائماً. وتباينت نظرات شخصياتها إلى عامل الزمان، ولم تكن رؤياتها إليه موحدة. فمنها من رآته وسيلة لتحقيق رغبات دنيوية وإشباع شهوات جسدية (هو _ ابن الزارة)، ومنها من اتخذته مطية لبلوغ هدف أسمى هو الفوز بالآخرة (كيفا)، ومنها من جمعت بين الأمرين أو كادت (السالمة).

ومزجت الرواية بين ما هو تاريخي وبين ما هو متخيل معتمدةً عنصرَ التاريخ إطاراً عاماً، انفتحت عليه بشكل غير واضح. وقع هذا الإنفتاح من خلال التفاعل مع شروط مرحلة تاريخية معينة، لأن مرويتها غير متحقق في الواقع، وإنما تصورته، وتخيلته تبعاً للشروط الحضارية لحقبة محددة من تاريخ المغرب. وإذا كان بعض الروائيين ينطلقون من الحقيقة التاريخية أو من التاريخ الواقعي المتحقق في اتجاه تقنية التخيل، وهو ما يعرف بعملية أحيلة التاريخي، فإن الروائي قد تجاوز ذلك إلى تقنية مضاعفة، أضافت إلى قضية أحيلة التاريخي عملية أُرْحَنَة الخيالي، وقد أقام نوعاً من الحوار أو صنفاً من المزاجية بين الرواية والتاريخ، إذ عاد إليه دون أن ينغمس فيه كلياً، أو يجعله غايةً في حد ذاته، بل اتخذته وسيلةً للتمويه، وإضفاء شيءٍ من الواقعية على عمله، وبلوغ الحقيقة الروائية. فهو قد اشتغل في ميدان التاريخ أعواماً ليست قليلة، ولكنه

حين أراد أن يبتعد عنه قليلاً، ألقى نفسه مشدوداً إلى إغراءات حقل الإبداع الروائي السردى.

وإن الأفضية التي احتوتها، باستثناء حصن سكورة وشرفة ولد الشهباء، تثير القلق والرهبية والخوف، وتفوح منها رائحة الموت والقتل والتعذيب والهلاك والدمار. كما أن السجن فضاء منغلق، وأن حصن السوق هو الآخر منغلق على نفسه لكونه محاطاً بأسوار، وداخله أمكنةٌ مُسَوَّرَةٌ مُحَرَّمَةٌ على عامة الناس، مثل الرياض والمنزه، وهو في المقابل منفتح على أماكنٍ أحرَّ مثل مدن فاس ومراكش والدار البيضاء والسهل والجليل...